الملمح التّداوليّ في علم البيان

The pragmatic profile in the science of clear speech

محمّد شيخي *

عيسى طيبي♣

تاريخ الإرسال: 2022/02/02	تاريخ القبول: 2023/04/20	تاريخ النشر: 2023/05/10

الملخص:

ظهرت في مجال اللّسانيات نظريّات لغوّية حديثة اختلف منهج كلٍّ منها في دراسة اللّغة بحَسَب فلسفتها وخلفيّاتها و نظرتها إلى اللّغة، ومن تلك النظريّات اللّسانيّات التّداوليّة الذي سعى علماؤنا المعاصرون إلى تأصيلها والبرهنة على وجود جذورها في الدّرس اللّغوي العربي القديم وبخاصّة في علم البلاغة الذي احتوى على جُلّ مباحثها. غير أنّهم ركّزوا في تأصيلهم ذاك على علم المعاني باعتباره مُنْبَنِيًا على روح التّداولية الذي هو مراعاة مقتضى الحال، ومن هنا تأتي هذه الدراسة لتُجلّيَ الملمح التّداوليّ في علم آخر من علوم البلاغة و هو علم البيان، وتُبيّن أنّ الجانب التداوليّ فيه لا يقلّ عمّا هو موجود في علم المعانيّ.

الكلمات المفتاحية: النظريات اللّغوية؛ اللّسانيات التداوليّة؛ علم البلاغة؛ علم البيان.

Abstract:

In the field of linguistics; modern linguistic theories emerged, each of them differed in its approach according to its philosophy, and view of language. And among these theories Pragmatic which our contemporary scholars sought to prove the existence of its roots in the ancient linguistic Arabic lesson, especially in Rhetoric.

They focused in their rooting on the science of meanings which is

***جامعة أكلي محند أولحاج البويرة (الجزائر)، مخبر: قضايا الأدب المغاربيّ، m.chikhi@univ-bouira.dz**

♣ جامعة أكلي محند أولحاج البويرة (الجزائر) a.taibi@univ-bouira.dz

considered to be built on the pragmatic spirit i.e compliance with condition. This study comes to show the pragmatic profile in another science of Rhetoric which is the science of clear speech and reveals that the pragmatic aspect in it is no less than what is found in the science of meanings.

Key words: *linguistic theories, Pragmatic, rhetoric ,science of clear speech.*

المؤلف المرسل: محمّد شيخي m.chikhi@univ-bouira.dz

مقدِّمة:

ظهرت على أعقاب اللّسانيّات البنيويّة نظريّات لسانيّة كثيرة استفادت منها في أمور و خالفتها في أمورٍ أخرى، ومن بين تلك النّظريّات: اللّسانيّات التّداوليّة التي نعى أصحابها على اللِّسانيّات البنيويّة اهتمامها باللّغة مجرّدةً عن قائلِها ومتلقِّيها والسِّياق الذي قِيلت فيه، كما أنكروا على البنيويين صرْفَهم لنظرِهم عن الوظيفة التي تُؤدِّيها اللُّغة، وحاولوا استدراك كلّ ذلك بدراسة اللّغة لا على أنّها شيءٌ جامد معزول عن مستعمليه وسياقه ووظيفته، ولكن على أنّها كائنٌ حيٌّ مُتداولٌ يستمدُّ حيويَّته من السِّياقات التي قِيل فيها، ومن الأغراض التي لُفِظ لأجلها، فكانت اللّسانيّات التّداوليّة التي صَبَّت اهتمامها على دراسة اللّغة في حال الاستعمال.

والمتدبّر في التُّراث العربيّ يجِدُه مشتملاً على كثيرٍ من المباحث والمُرتكزات التي تنبني عليها التّداوليّة، وخاصّة علم البلاغة الذي يتقاطع مع التّداوليّة في كثيرٍ من مباحثِه. وإذا كانت نقاط ذلك التّقاطع ظاهرةً في علم المعاني فإنّنا سنحاول في هذا المقال تسليط الضّوء على النّقاط التي تتقاطع فيها التّداوليّة مع علم البيان، مُحاولين الإجابة عن التّساؤلات الآتية: هل يوجد ملمح للنّظرية التّداوليّة في علم البيان؟ وأين يتجلّى؟ وما الحيّز التّداولي الذي شغلته مباحث علم البيان في نظرتها إلى اللّغة؟

للإجابة عن هذه الإشكاليّة سنستقصي أهمّ المباحث التّداوليّة التي احتوت عليها مسائل علم البيان، و سنُجري قبل ذلك مقارنة بين تعريف التّداوليّة من جهة وتعريف علم البيان من جهة أخرى، من أجل تلمُّس العلاقة التي تجمع بين العلمين، وتحديد النّقاط التي يشترك فيها مجال بحث كلٍّ منهما.

أمّا الهدف من هذه الدّراسة فهو التّأكيد على دقّة وشمول نظرة أسلافنا إلى اللّغة من خلال بيان سبقهم في إلى كثير من المفاهيم التي تُعَدُّ اليوم من الأسس التي تنبني عليها أحد أحدث النّظريّات اللّغويّة ألا وهي النّظريّة التّداوليّة، كما تأتي هذه الدِّراسة لتمدّ الجسور إلى الدّرس اللغويّ الحديث، من أجل الاستفادة من آراء روّاده التي تتميّز بالمنهجيّة العلميّة الرصينة، والتي تعدُّ خير مُكمِّل لما خلّفه علماؤنا من تراث لغويّ.

1. مقارنة بين تعريف التّداولية وتعريف علم البيان:

1.1 تعريف التّداوليّة:

التّداوليّة: «pragmatic »مذهب لساني يدرس علاقة النّشاط اللغويّ بمُستعمليه، وطرق وكيفيّات استخدام العلامات اللغويّة بنجاح، والسّياقات والطبقات المقاميّة المختلفة التي يُنجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصليّة واضحة وناجحة، والبحث في أسباب الفشل في التّواصل باللّغات الطبيعيّة."[1]

من خلال التعريف السّابق للتداوليّة نُدرك أنَّ التّداوليّة تُعنى بـ:

أ- دراسة علاقة النّشاط اللّغوي بمستعمليه.

ب- بيان طّرق وكيفيّات استخدام العلامات اللّغويّة بنجاح.

ج-البحث عن العوامل التي تجعل الرِّسالة التّواصليّة واضحة ناجحة.

د- البحث عن العوامل التي تجعل الرّسالة التواصليّة فاشلة.

2.1 تعريف علم البيان:

علم البيان هو أحد علوم البلاغة وقد عرّفه أبو يعقوب السّكّاكي في مفتاح العلوم بأنّه: "معرفة إيراد المعنى الواحد في طرقٍ مختلفة بالزّيادة في وضوح الدّلالة عليه، وبالنقصان ليُحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه".[2]

ممّا سبق من تعريف السّكاكي لعلم البيان يتبيّن لنا أنّه:

1- علمٌ يُعْرفُ به إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة.

2-أنّ طُرُقَ تَأْدِيَة المعنى المُستفادة من علم البيان منها ما يزيد به الكلام وضوحا.

3-أنّ من طُرُقَ تَأْدِيَة المعنى ما ينقص في وضوح الدّلالة على المعنى المراد، ومعرفتها بواسطة علم البيان تكون للاحتراز عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه.

بعد تعريف التداوليّة وعلم البيان، والنّص على المجال الذي ينشط فيه كلٌّ منهما نخلُصُ إلى أنّ التّداوليّة تُعنى بنفس المباحث التي يُعنى بها علم البيان، إلّا أنّنا نجد في تعريف التّداوُليّة شيئًا زائدًا وهو دراسة علاقة النّشاط اللّغوي بمُستعمليه وهو ما لا نجِدُه منصوصًا عليه في تعريف السّكاكي، وإن كان موجودًا إجرائيًّا في شرح وتحليل علماء البيان للصّور البيانيّة.

غير أنّ قولنا بأنّ علم البيان يشارك التّداوليّة في محاور بحثها، لا يعني تطابُق منهجيّة العلمين في مُعالجة تلك المباحث، لأنّ مجال التّداوليّة في ذلك أوسع من مجال علم البيان الذي تنحصر دراسته للكلام في ثلاثة مباحث هي: التشبيه، والمجاز، والكناية، وسنحاول فيما يلي بيان كلّ مبحث على حِدَة، ونحاول أن نبيّن وجوه ارتباطه بأبرز المفاهيم التي جاءت بها التّداوليّة.

2.أبرزالمفاهيم التداوليّة في المباحث البيانيّة:

1.2 المفاهيم التداوليّة في مبحث التشبيه:

التّشبيه هو: الدّلالة على مُشاركة أمرٍ لأمرٍ آخر في المعنى نحو قولك زيدٌ كالأسد[3]، وقد ذكر الخطيب القزوينيُّ في الإيضاح بأنّ تعقيب المعاني بالتّشبيه يضاعف قُواها في تحريك النُّفوس إلى المقصود بها، ومن أجل ذلك فقد اتفق العقلاء على شرف قدره وفخامة أمره في فنّ البلاغة.[4]

وبيان الخطيب القزوينيّ بأنّ فائدة التّشبيه هي تحريك النّفوس إلى المقصود بالمعاني التي عُقِب بها ذلك التشبيه هو جوهر ما أتت به التّداوليّة في مبحث الأفعال الكلاميّة الذي يُعدّ الفكرة الأولى التي نشأت منها اللّسانيات التّداوليّة، والذي يربط اللّغة بما تنجزه في الواقع،[5] من خلال عدّ المعاني والمضامين اللغويّة " إنجازات وأغراض تواصُليّة ترمي إلى صناعة أفعال ومواقف اجتماعيّة أو مؤسّساتيّة أو فرديّة بالكلمات، والتّأثير في المخاطَب بحمله على فعلٍ أو تركه أو دعوته إلى ذلك أو تقرير حكم من الأحكام"[6].

وقد قسّم «أوستن »الفعل اللّغوي الكامل إلى ثلاثة أقسام فرعيّة هي:

1- فعل القول: « locutionary»: وهو نفس القول الذي يلفظه المتكلّم بمستوياته الصّوتيّة والتّركيبيّة والدّلاليّة.

2- الفعل المتضمّن في القول أو الفعل الإنجازي « illocutionary»: و يراد به الحدث الذي يقصده المتحدِّث بالجملة كالأمر والنّصيحة، وهذا الصنف من الأفعال الكلاميّة هو المقصود من النّظريّة برمّتها ولذلك فقد اقترح أوستن تسمية الوظائف اللّسانيّة الثاوية خلف هذه الأفعال بالقوّة الإنجازيّة.

3- الفعل النّاتج عن القول:«perlocutionary acts» وهو التّأثير العملي للقول، أو الأثر الذي يُحدثه الفعل الإنجازي في المتلقّي[7].

وإنّما قلنا بأنّ ما ذكره القزوينيّ من فائدة للتشبيه هو جوهر ما أتت به التّداوليّة لأنّ تحريك النّفوس إلى المقصود بالمعاني التي عُقِب بها التشبيه هو ما أسمّاه أوستن بـ: الفعل المتضمّن في القول أو الفعل الإنجازي، والذي هو المقصود من النّظريّة التّداوليّة برمّتها.

ويَحسُن هنا ذكر مثال عن نوع من أنواع التّشبيه وهو التشبيه المقلوب في قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَاْ يَخْلُقُ ﴾-النحل 71- فقد ذكر الكِرمانيّ بأنّ الأصل أفمن لا يخلق كمن يخلق لكنّه قلب لأنّ عَبَدَة الأصنام لمّا جعلوها كالخالق اقتضى المقام أن يُجعل الخالق مشبّها به، وغير الخالق مشبّها، لأنّ في عكس التّشبيه مزيد توبيخ إذ المعنى يصير: أنّ غير الخالق عندهم في وجه الشّبه أقوى من الخالق وأولى باسم الألوهيّة[8].

لقد علّل الكرمانيُّ عكس التّشبيه في الآية السابقة بالغرض الذي يؤديه ذلك التشبيه حال كونه معكوسًا، وهو زيادة التّوبيخ للمشركين الذين اتّخذوا آلهة مع الله عزّ وجلّ، ومثل معنى التوبيخ هو عينه ما يُسمّيه التّداوليّون بالفعل المضمّن في القول أو القوّة الإنجازيّة.

وفي تعليل الكرماني أيضا أمرٌ وثيق الصِّلة بأحد الأسس التي ينبني عليها المذهب التّداولي وهو ذِكْرُه للمَقام عندما بنى التعليل الذي ذكرناه آنفًا على اقتضاء المقام، وذلك أنّ موضوع التّداولية هو:"التّواصل البشري المعتمد على دراسة المقام"[9]، ومن أجل ذلك ترجم بعضهم مصطلح:« *pragmatics* » بـ: « المقاميّة »[10].

2.2 المفاهيم التداوليّة في مبحث المجاز:

عرّف السكاكيُّ المجاز بأنّه:"الكلمة المُستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتّحقيق استعمالا في الغير بالنّسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النّوع"[11]، وقسّمه الخطيب القزوينيّ في الإيضاح إلى قسمين: مفرد ومركّب فقال في تعريف المفرد:"الكلمة المستعملة في غير ما وُضِعت له في اصطلاح التّخاطب على وجه يصحّ مع عدم قرينة عدم إرادته"[12]، وقال في تعريف المجاز المركّب:"هو اللّفظ المركّب المستعمل فيما شُبِّه بمعناه الأصليّ تشبيه التمثيل للمبالغة في التّشبيه..."[13]

إنّ أوّل شيءٍ يلفت نظرنا في هذه التّعريفات اعتبارها للجانب الاستعمالي للّغة، ودراسة اللّغة حين الاستعمال هو التّداوليّة في أبسط تعريفاتها[14]، وقد ذكرت "آن ربول"و"جاك موشلار" أنّ التّداوليّة "يمكن أن تُعرّف بصفة عامّة على أنّها دراسة استعمال اللّغة، في مقابل دراسة النّظام الذي تعنى به تحديدا اللّسانيّات"[15].

كما يلفت نظرنا في التعريفات السابقة نصُّ أصحابها على فعل التّخاطب الذي يؤكّد مع الاستعمال أنّ علماء البيان عند تفريقهم بين الحقيقة والمجاز لم ينظروا إلى اللّغة مجرّدة عن مرسِل يُلْقي الكلام، ومُخاطَبٍ يتلقى ذلك الكلام، بل نظروا إلى اللّغة موجودة في ذلك الإطار التّخاطبيّ، وهذا أيضا معقِدُ اهتمام التّداوليّة ومجال دراستها للّغة.

وأمرٌ ثالث يجدر بنا التنبيه إليه في هذه التّعريفات وهو التنبيه على القرينة المانعة من إرادة المرسل للمعنى الحقيقي للكلمة، وإثبات إمكان إرادته مع عدم وجود القرينة، والإرادة والقرينة المحدِّدة لغرض المتكلِّم هي ما يعبّر عنه أصحاب المنهج التّداولي بالقصديّة.

إنّ مقولة القصديّة «intention »تتجلّى"في الرّبط بين التّراكيب اللّغويّة، ومراعاة غرض المتكلّم والمقصد العام من الخطاب في إطار مفاهيمي مستوفٍ للأبعاد التّداوليّة للظاهرة اللّغويّة"[16]، ولهذه المقولة مكانة محوريّة في المنهج التداولي لأنّ التّداولّية كما ذكر"جورج يول" هي: "دراسة المعنى الذي يقصده المتكلّم"[17]، و"لأنّ المقصِد يقع في صميم شروط النجاح وكذا في صميم القوّة المتضمّنة في القول، وحتّى في مفهوم العمل ذاته، وفي النّظريّة التّداوليّة للدّلالة"[18] وهذا يفسّر ترجمة بعض اللّغويين العرب في البداية لمصطلح: « pragmatics » بـ: "علم المقاصد" أو"القصديّة" أو "المقاصديّة".[19]

وقد يقول قائل بأنّ علماء البيان لم يعتبروا قصد المتكلّم مطلقًا بل اعتبروه للتّفريق بين الحقيقة والمجاز فحسب، فيُجاب بجوابين:

الأوّل: أنّ مجّرد اعتبار قصد المتكلّم عند التّلفظ -ولو في مسألة جزئيّة- يكفي دليلا بأنّ علماء البيان نظروا إلى اللّغة نظرة تداوليّة، ولم ينظروا إليها على أنّها كلمات وتركيبات مجرّدة.

الثاني: أنّ علماء البيان قد اعتبروا قصد المتكلّم« speaker intention »مُطلقا، ولم يحصروا اعتباره في التّفريق بين الحقيقة والمجاز، ودليل ذلك قول سعد الدّين التّفتازاني في شرح تعريف القزويني لعلم البيان:"و المعنى أنّ علم البيان ملَكة أو أصول يُقتدر بها على إيراد كلِّ معنى واحد يدخل في قصد المتكلِّم وإرادته بتراكيب يكون بعضها أوضح دلالة عليه من بعض"[20]، ونقل الجرجانيّ في حاشيته على المطوّل تعليل بعضهم لتأخُّر علم البيان عن علم المعاني بأنّ البحث في مراتب الدّلالة من حيث الوضوح والخفاء -الذي هو من اختصاص علم البيان- فرع في المقصوديّة وتتمّة لها، بينما البحث في مطابقة الكلام لمقتضى الحال -الذي هو اختصاص علم المعاني- أصل للمقصوديّة[21]، فجعلوا علوم البلاغة مرتّبة على حسَب المقصوديّة، وهذا دليل آخر يؤكّد أنّ علماء البيان لا يرون الكلام مجرّدًا عن القصديّة.

ومن المجاز الاستعارة وهي: "جَعْلُ الشيءِ الشيءَ أو للشَّيءِ مُبالغةً في التّشبيه كأنّه من ذلك الجنس"[22]، وننقل هنا مثالًا عن الاستعارة ذكره "عبد القاهر الجرجاني" في أسرار البلاغة وهو قولك: "رأيت أسدًا وأنت تقصد رجلًا شُجاعًا"[23] وممّا قال في شرحه: "فقد استعرت اسم الأسد للرّجل، ومعلومٌ أنّك أفدت بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل لك، وهو المبالغة في وصف المقصود بالشّجاعة، وإيقاعك منه في نفس السّامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وبأسه وشدّته"[24].

ممّا نقلنا من شرح "عبد القاهر الجرجاني" للاستعارة التي ذكرها يبدو لنا جليّا بيّنًا النظرةُ التّداوليّةُ التي كان ينظر بها إلى الكلام، فلم يقف شرحَه للاستعارة على اللّغة وحدها، بل أدخل المتكلّم الذي عبّر عنه بضمير المخاطب، وأدخل قصده حين قال: "وأنت تقصد"، وأدخل السّامع حين قال: "وإيقاعك منه في نفس السّامع"، وبيّن الغرض من الاستعارة بقوله: "إيقاعك منه في نفس السّامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وبأسه وشدّته" وهو ما أسمّاه التّداوليّون بـ: "الفعل المتضمَّن في القول أو الفعل الإنجازي".

ولا تقف نظرة"عبد القاهر الجرجاني" التداوليّة إلى الاستعارة عند هذا الحدّ، بل تذهب إلى أبعد من ذلك حين يقول عن الاستعارة المفيدة: "فإنّ الكثير منه تراه في عِداد ما يشترك فيه أجيال النّاس، ويجري به العُرف في جميع اللّغات فقولك: رأيت أسدًا تُريد وصف رجلٍ بالشّجاعة، وتشبيهه بالأسد على المبالغة أمرٌ يستوي فيه العربيُّ والعجميّ، وتجده في كلّ جيل، وتسمعه من كلّ قبيل...فإذا ذُكِر المجاز وأُريد به هذا النّحو من الاستعارة فيه، فالوجه أن يُضاف إلى العقلاء جملةً، ولا تستعمل لفظة توهم أنّه من عرف اللّغة وطُرقها الخاصّة بها"[25].

لقد نبّه"عبد القاهر الجرجاني" منذ قرون إلى نوع من الدّلالات لا يُدرك بإدراك علاقة الدوالِّ بالمدلولات الذي يُعَدُّ من اختصاص علم الدّلالة، ولا من علاقة الدوالِّ

ببعضها البعض الذي هو من اختصاص علم النّحو، بل يُدرك بإدراك علاقة الدوالِّ بمُنتِجها ومُستَقْبِلها وسياق إنتاجها وتلقِّيها، وهذا هو مجال بحث التّداوليّة وهو ما أسماه "موريس" «*Morris*» بالضلع الثالث من مُثلّث علم العلامات بالإضافة إلى علم الدّلالة وعلم النّحو اللذين يمثِّلان الضّلعين الآخرَيْن[26]، وأمّا تنبيه "الجرجاني" على هذا النوع من العلاقات فهو إثباته أنّ هناك معانيَ يجري بها العُرف في جميع اللّغات ويُدركُها العقلاء جملةً وليست هي من خصائص لغة من اللّغات، ولا شكّ أن المعاني التي تُدرك بعرف وعقول النّاس– عربهم وعَجَمِهم- ليست إلّا المعاني التي تُدرك بإدراك علاقة الدوالِّ بمُنتِجها ومُستَقْبِلها وسِياقها أي المعاني التي هي محور بحث المنهج التّداوليّ.

1.2 المفاهيم التداوليّة في مبحث الكِناية:

عرّف "السّكاكيّ" الكِناية بأنّها:"ترك التّصريح بذكر الشّيء إلى ذِكر ما يلزمه، ليَنتقل من المذكور إلى المتروك، كما تقول طويل النِّجاد لينتقل منه إلى ما هو ملزومُه وهو طول القامة"[27]، وعرّفها الخطيب القزوينيّ بأنّها: "لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ، كقولك: فلان طويل النّجاد أي: طويل القامة، وفلانة نؤوم الضّحى أي: مُرفّهة مخدومة"[28].

وقد بيّن علماء البيان أنّ التّعبير بالكناية أبلغ من التّعبير الصّريح لما يترتّب عليه من أثرٍ في نفس السّامع، ومن أمثلة ذلك طريقة الإنكار التي صدرت من بني إسرائيل على مريم الصّدِّيقة بسبب ما سبق إلى أوهامهم من ظنٍّ سيّئٍ حينما رأوها تحمل عيسى عليه السّلام ، قال تعالى ذاكرا ذلك الإنكار: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ -مريم 28- حيث أضافوا "أخت" إلى "هارون" كنايةً عن موصوف وهو مريم الصدّيقة، وقد بيّن الشيخ الطّاهر بن عاشور فائدة تلك الكناية بقوله: " خَاطَبُوهَا بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِ زِيَادَةً فِي التَّوْبِيخِ، أَيْ مَا كَانَ لِأُخْتِ مِثْلِهِ أَنْ تَفْعَلَ فِعْلَتَكَ"[29].

وقد جعل الرّازي زيادة التّوبيخ المُستفادة من هذه الكناية من مُرجّحات كون "هارون" المذكور هنا هو أخو مريم الصدّيقة حقيقة، وليس هو هارون النبيّ أو هارون آخر فقال: "أُضِيفَتْ إِلَيْهِ وَوُصِفَ أَبَوَاهَا بِالصَّلَاحِ وَحِينَئِذٍ يَصِيرُ التَّوْبِيخُ أَشَدَّ لِأَنَّ مَنْ كَانَ حَالُ أَبَوَيْهِ وَأَخِيهِ هَذِهِ الْحَالَةَ يَكُونُ صُدُورُ الذَّنْبُ عَنْهُ أَفْحَشَ"[30]، والحاصل أنّ علماء البيان رتّبوا حكمهم بأبلغيّة الكناية على ما تحمله هذه الكناية من قوّة في التّأثير، أو قوّة إنجازيّة على تعبير أصحاب المنهج التّداوليّ.

وقد ذكر "عبد القاهر الجرجانيّ وجها آخر لبلاغة التعبير بالكناية حين قال: " ليس المعنى إذا قلنا: إن الكنايَة أبْلغُ منَ التَّصريح، أنك لمَّا كنَّيْتَ عن المعنى زدْتَ في ذاته، بل المعنى أنّك زِدْتَ في إثباتهِ، فجَعلْتَه أبلغَ وآكَدَ وأَشَدَّ. فليستِ المزيّةُ في قولهم: جَمُّ الرّماد، أنّهُ دلَّ على قِرًى أكثرَ، بل المعنى أنّك أَثبتَّ له القِرى الكثيرَ من وجهٍ هو أَبلغُ، وأوجَبْتَه إيجاباً هو أَشدُّ، وادَّعيْتَه دَعْوى أنتَ بها أَنْطَقُ، وبِصِحَّتها أَوْثَقُ"[31].

لقد رتّب "الجرجانيّ" حُكمه بأنّ التّعبير الكنائيّ أبلغ من التّعبير الصريح على كون الأوّل مشتملا على بيّنة تثبت صحّة المعنى المتضمّن فيه، بخلاف الثاني، لأنّ في التّعبير بالكناية إثباتٌ لصفة الكرم مشفوعٌ بدليل تلك الصّفة وهو كثرة الرّماد الناتج من كثرة الطبخ للأضياف، وهو بهذا ينحو منحًى حِجاجيًّا في تفسير بلاغة الكناية، ومعلوم أنّ الحجاج « argumentation » من مجالات بحث التّداولية[32].

هذا وقد عرّف بعض عُلماء البيان الكناية بأنّها: "إطلاق لفظ حَسَنٍ يُشِير إلى مَعنًى قبيح"[33]، أي إخفاء معنًى قبيح في لفظ حَسَنٍ، وبيّنوا أنّ المعنى الذي أُتِي بالكناية من أجله هو: "الإجمال في الخطاب، والدّفع بالتي هي أحسن، والتّجنّب للهُجر من القول، إذ هو أرسخ في الأُلفة وأمكن"[34]، فجعلوا فائدة الكناية التأدّب في الخطاب، وهذا يُحيلنا إلى مبدأ التأدُّب « politeness principle » الذي نبّهت إليه الباحثة الفرنسية "روبن لاكوف" والذي يُعَدُّ مبحثًا خِصبًا من المباحث التّداوليّة[35].

لقد أكّدت"لاكوف"على "أنّ المُتخاطبين في تبادُلاتهم الكلاميّة يحرصون غالبًا حِرصًا شديدا على الالتزام بقدر كبير من الأدب والبُعد عن العدوانيّة أكثر ممّا يتوخون الوضوح"[36]، و ممّا يُلحظ في كلامها أنّها جعلت مبدأ التأدُّب غالبا في محاورات المتكلّمين، ولم تخُصَّهُ بمن اضطرّ إلى إلقاء كلمة قبيحة على مُخَاطبه فاستعمل الكناية لكسر حدّة تلك الكلمة بإخفائها وراء ملزومِها استِبْقاءً للأُلْفَة بينه وبين ذلك المخاطب، كما يُفهم من الوظيفة التي ذكرها علماء البيان للكناية.

غير أنّ علماء البيان لم يشترطوا أن يكون الكلام الذي تُستعمل الكناية لِتَلْطِيفِه قبيحا في ذاته، بل قد يكون ذلك الكلام كلاما عاديّا ولكنّ المقام يقتضي عدم إخراجه باللفظ الصّريح ، ومن ذلك ما رُوِيَ: "أنّ رجلا مرّ في صحن دار الرّشيد ومعه حزمة خيزران، فقال الرشيد للفضل بن الربيع، ما ذاك فقال (عروق الرماح) يا أمير المؤمنين، وكره أن يقول (الخيزران) لموافقته اسم والدة الرشيد"[37].فعدل عن التصريح بـ "الخيزران" وهي كلمة ليست قبيحة في ذاتها، ولكنّ موافقتها لاسم والدة "هارون الرّشيد" جعل التصريح بها مُخالفا للّباقة.

3.خاتمة:

من خلال مُقارنتنا لعلم البيان بالتّداوليّة نخلص إلى النّتائج الآتية:

1- محاور بحث علم البيان هي نفسُها محاور بحث التّداوليّة، غير أنّ مجال بحث التّداوليّة في دراستها لتلك المحاور أوسع من مجال بحث علم البيان الذي ركز دراسته لتلك المحاور في ثلاث مسائل هي: التّشبيه، والمجاز، والكناية.

2- لقد رتّب علماء البيان بلاغة التّشبيه على الأثر الذي يُحدِثُه في نفس السّامع، وهُم بذلك يقيّمون الأقوال بما تتضمّنه من تأثير على المتلقي، وهذا هو ما ركّزت عليه التّداوليّة في مبحث الأفعال الكلاميّة الذي يعدّ أهمّ مباحثها، كمّا بيّنوا دور المقام -الذي

يُعدُّ من العناصر التي احتفت بها التّداوليّة في دراستها للّغة- في وقوع بعض التّشبيهات على حالٍ مخصوصة.

3- لقد تنبّه علماء البيان عند بحثهم لمبحث المجاز إلى عدّة مسائل تعدّ اليوم من أهمّ مُرتكزات المنهج التّداولي، وتُعتبر من أهمّ مبادئه، و هذه المسائل هي: النظر إلى اللّغة في حال الاستعمال، الاعتداد بعناصر الخطاب، التّركيز على قصد المتكلِّم وهو ما يُعرف عند التّداوُليين بالقصديّة «intention »، العناية بعلاقة النّشاط اللّغوي بمُستعمليه.

4- لم تخلُ دراسة عُلَماء البيان للكناية من التّنبيه إلى بعض المسائل التي احتفى بها المنهج التّداولي كالتنبيه إلى تأثير الكناية في السّامع الموافق لما أسماه التّداوُليُّون بالفعل المتضمّن في القول، والتنبيه إلى حجاجيّة الكناية، والتّنبيه إلى كون الكناية من الأساليب التأدّبيّة الموافقة لمبدأ التأدّب « politeness principle » عند أصحاب المنهج التّداولي.

5- أثبتت الدّراسة أنّ علم البيان ما هو إلّا دراسة تداوليّة للّغة، وبيّنت أنّ النظرة التّداوليّة إلى اللّغة قد شملت كلّ مباحثه، ولم تتخلّف في أيّ واحد منها، ممّا يخوّل لنا أن نحكم بأنّ علم البيان العربي هو علم تداوليّ بحقّ.

4. الهوامش:

[1] مسعود صحراوي، التّداوليّة عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005م، ص5.

[2] السّكّاكي، أبو يعقوب، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط2، 1987، ص 162.

[3] ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: غريد الشيخ محمّد، إيمان الشيخ محمّد، دار الكتاب العربي، بيروت،ط 1،2004م، ص 147.

[4] ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[5] ينظر: خليفة بوجادي، في اللّسانيّات التّداوليّة مع محاولة تأصيليّة في الدّرس العربيّ القديم، بيت الحكمة، الجزائر، (دط)، (دت)،ص86.

[6] مسعود صحراوي، التّداوليّة عند العلماء العرب، ص 11.

[7] ينظر: أوستين، نظريّة أفعال الكلام العامّة – كيف ننجز الأشياء بالكلام - ، ترجمة عبد القادر قينيني، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء -المغرب-، (دط)، 1991م، ص 121- 124، وينظر: محمود عكاشة، النّظريّة البراجماتيّة اللّسانيّة، مكتبة الآداب، القاهرة،(دط)، (دت)، ص ص 99 ،100.

[8] ينظر: الكِرماني، شمس الدّين محمد بن يوسف، تحقيق الفوائد الغياثيّة، تحقيق د.علي بن دخيل الله بن عجيان العوفي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنوّرة، ط1، 1424هـ،ج2، ص ص 654،653.

ينظر: خليفة بوجادي، في اللّسانيّات التّداوليّة مع محاولة تأصيليّة في الدّرس العربيّ القديم، ص 70.

[10] ينظر: المرجع نفسه، ص 65.

[11] السكاكي، مفتاح العلوم، ص 359.

[1] الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 188.

[1] المرجع نفسه، ص 214.

[14] ينظر: خليفة بوجادي، في اللّسانيّات التّداوليّة مع محاولة تأصيليّة في الدّرس العربيّ القديم، ص154.

[15] جاك موشلر – آن ريبول، القاموس الموسوعي للتّداوليّة، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين، دار سيناترا، تونس، ط2، 2010م، ص 21.

[16] مسعود صحراوي، التّداوليّة عند العلماء العرب، ص 10.

[17] جورج يول، التّداوليّة، ترجمة: د. قصيّ العتّابي، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010م، ص 19.

[18] فيليب بلانشيه، التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، سوريّة، ط1، 2007م، ص 147.

[19] ينظر: محمود عكاشة، النّظريّة البراجماتيّة اللّسانيّة، ص15.

[20] التّفتازاني، سعد الدّين مسعود بن عمر، المطوّل شرح تلخيص المفتاح ومعه حاشية السيّد الشريف الجرجاني، تحقيق: أحمد عزّو عناية، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط1، (دت)، ص 505.

[21] ينظر: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

[22] الكِرماني، شمس الدّين محمد بن يوسف، تحقيق الفوائد الغياثيّة، ج2، ص ص 722، 723.

[23] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى، ميسّر العقاد، مؤسّسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط1، 2004م، ص 31.

[24] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[25] المرجع نفسه، ص ص 31، 32.

[26] ينظر: بهاء الدّين محمّد مزيد، تبسيط التداوليّة، شمس للنشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، 2010م، ص 19.

[27] السّكاكي، مفتاح العلوم، ص 402.

[28] الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 225.

[29] محمّد الطّاهر بن عاشور، تفسير التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، 1984م، ج16، ص95.

[30] الرّازي، محمّد فخر الدّين، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، ط1، 1981م، ج21، ص 209.

[31] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، (دط)، (دت)، ص 71.

[32] ينطر: خليفة بوجادي، في اللّسانيات التّداوليّة، ص 105.

[33] ابن النقيب، مقدِّمة تفسير ابن النّقيب في البيان والمعاني والبديع وإعجاز القرآن، مكتبة الخانجي، القاهرة، (دط)، (دت)، ص262.

[34] المرجع نفسه، ص 263.

[35] ينظر: جواد ختام، التّداوليّة أصولها واتّجاهاتها، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2016م، ص 109.

[36] المرجع نفسه، ص107.

[37] السيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1 ،2010م، ص253.

المراجع:

1- أوستين، نظريّة أفعال الكلام العامّة – كيف ننجز الأشياء بالكلام - ، ترجمة عبد القادر قينيني، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء -المغرب-، (دط)، 1991م.

2-ابن النقيب، مقدِّمة تفسير ابن النّقيب في البيان والمعاني والبديع وإعجاز القرآن، مكتبة الخانجي، القاهرة، (دط)، (دت).

3- بهاء الدّين محمّد مزيد، تبسيط التداوليّة، شمس للنشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، 2010م.

4- التّفتازاني، سعد الدّين مسعود بن عمر، المطوّل شرح تلخيص المفتاح ومعه حاشية السيّد الشريف الجرجاني، تحقيق: أحمد عزّو عناية، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط1، (دت).

5- جاك موشلر – آن ريبول، القاموس الموسوعي للتّداوليّة، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين، دار سيناترا، تونس، ط2، 2010م.

6 - جواد ختام، التّداوليّة أصولها واتّجاهاتها، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2016م.

7- جورج يول، التّداوليّة، ترجمة: د. قصيّ العتّابي، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010م.

8- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: غريد الشيخ محمّد، إيمان الشيخ محمّد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1،2004م.

9- خليفة بوجادي، في اللّسانيّات التّداوليّة مع محاولة تأصيليّة في الدّرس العربيّ القديم، بيت الحكمة، الجزائر، (دط)، (دت).
10- الرّازي، محمّد فخر الدّين، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، ط1، 1981م.
11- السّكّاكي، أبو يعقوب، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط2، 1987.
12- السيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1،2010م
13- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى، ميسّر العقاد، مؤسّسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط1، 2004م.
14- ـــــــ، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، (دط)، (دت).
15- فيليب بلانشيه، التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، سوريّة، ط1، 2007م.
16- الكِرماني، شمس الدّين محمد بن يوسف، تحقيق الفوائد الغياثيّة، تحقيق د.علي بن دخيل الله بن عجيان العوفي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنوّرة، ط1، 1424هـ
17- محمّد الطّاهر بن عاشور، تفسير التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، 1984م، ج16.
18- محمود عكاشة، النّظريّة البراجماتيّة اللّسانيّة، مكتبة الآداب، القاهرة، (دط)، (دت).
19- مسعود صحراوي، التّداوليّة عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005م.